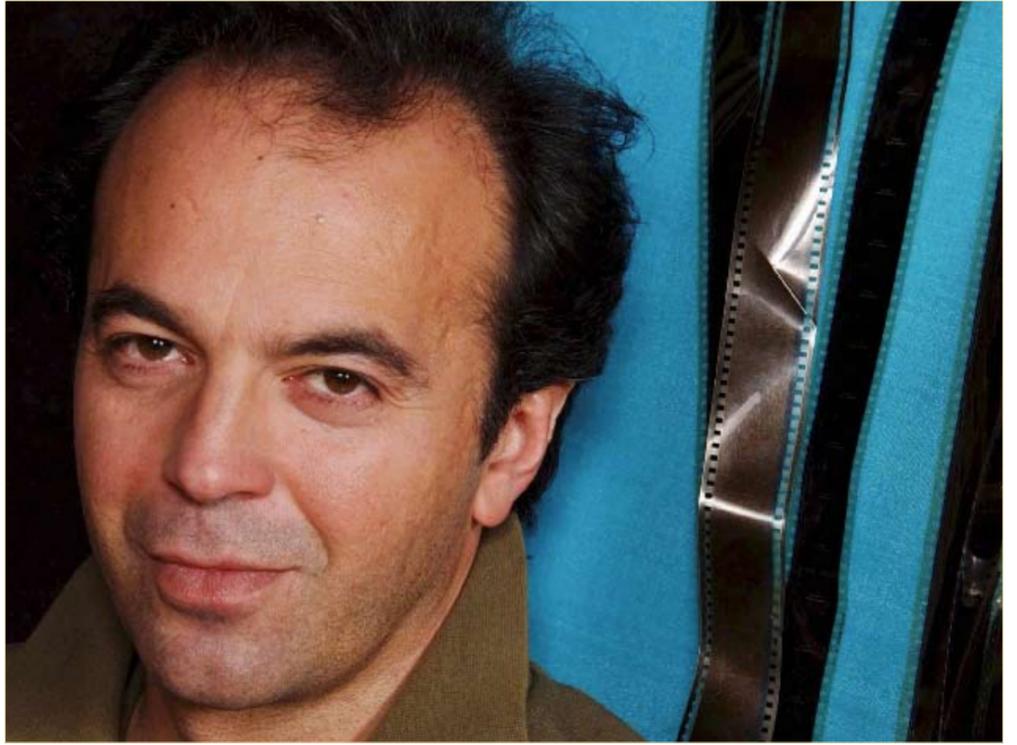




أشخاص

غسان سلهب

مواطن اللامكان ما زال «متطفلاً» على السينما



الشارع كان
مدرسته الأولى،
وكان يحلم
بأن يصبح بطل
فوتبول ويحرق
فلسطين

قاطع باريس
وعاد نهائياً إلى
بيروت خوفاً على
عفويته من ترف
الاستقرار الذي
يتهدد النظر
والتفكير

السينما من خارج الكليشيات. المنتجون استسلموا لديكتاتورية السوق. يقولون لي: أنت جيد، لكن ماذا تفعل بك يا بني؟ أنا مهتم بالنسبة إلى السينما، وبالنسبة إلى المنطقة التي أحاط بها، وبالنسبة إلى السوق الغربية».

لكن ما هم؟ حقق غسان تحفته الصغيرة «1958» بإمكانات قليلة. والفيلم الذي فرغ من تصويره أخيراً، يستند إلى ميزانية صغيرة أيضاً. «لا يجوز أن تعيش وتعمل هنا، من دون أن تأخذ بالاعتبار الواقع وإمكاناته». بطله هذه المرة يتظاهر بالسفر، ثم ينسل خلسة من مطار بيروت، ليركب سيارة مستأجرة ويمضي إلى الجبل، وينعزل هناك. لعله أحد أحلام غسان السريّة، منذ قرّر القطيعة مع باريس عام 2002 وعاد نهائياً إلى بيروت: «عدت لأنني خفت على عفويتي من ترف الاستقرار الذي يتهدد النظر والتفكير». لعل بيروت، بالنسبة إلى غسان سلهب، هي ذلك المطهر الذي تتمحور حوله «مذبحة الأبرياء»، التجهيز الذي سيقدّمه قريباً من وحي «الكوميديا الإلهية». بأية حال، لقد تخلص هذا الفنان الراديكالي من

أوهامه: «هنا تجترح الأعاجيب كي تنتج فيلماً وتعرضه، ثم... لا شيء. كأنك لم تفعل شيئاً. تذكر بيروت دائماً أنك لست شيئاً».

5 تواريخ

- 1958 الولادة في دكار (السنغال)
- 1970 الوصول إلى بيروت التي غادرها إلى باريس بعد اندلاع الحرب الأهلية (1975)
- 1998 «أشباح بيروت» الحلقة الأولى من ثلاثيته
- 2002 «أرض مجهولة» (نظرة ما» في مهرجان كان). القطيعة مع باريس. وبعد أربع سنوات استكمل ثلاثيته بـ«أطلال»، وحقّق فيلمه القصير «بعد الموت» على أثر حرب تموز
- 2010 عرض «1958» حالياً في بيروت. تصوير فيلم جديد بعنوان موقت هو «الجبل». تجهيز «مذبحة الأبرياء». تحية استعاريّة لأفلامه في «مهرجان لاروشيل» هذا الصيف

الأهلي وهم المرحلة بامتياز. وإذا بغسان يقوم بجرده حساب، من خلال مناضل سابق جاء يبحث عن ماضيه في الحرب. لغت النظر بلغة سينمائية مركبة، تخلط بين مستويات السرد، وبين الحقيقي والمتخيّل. «ليس هناك السينما من جهة، والباقي في الجهة الأخرى. إنها حالة كلية تشمل كل شيء: تجاربك وثقافتك ونظرتك إلى العالم. الراديكالية موقف مبدئي، من الوجود».

عاش غسان بين باريس وبيروت، هنا يجمع الملاحظات، وهناك يكتب ويبحث عن إنتاج، ثم يعود مجدداً ليصوّر... هكذا حقق بعد أربع سنوات فيلمه الروائي الثاني «أرض مجهولة» (2002)، بالأسلوب نفسه والهواجس نفسها، ومع الفريق الفني والتقني الذي تكوّن حوله وما زال يرافقه إلى اليوم. «كان التصوير ممتعاً هذه المرة». التقط السينمائي صورة فورية لجبل يبحث عن مكانه في زمن الإعمار، بين مستقبل غامض وجراح لم تلتئم، ذهب الفيلم إلى «مهرجان كان» (نظرة ما)، واحتفت الأوساط السينمائية بالمرشح الذي بدأ ينال الاعتراف أخيراً.

فيلمه الثالث «أطلال» (2006) الذي صوّر النزول إلى حضيض المدينة، وعكس سوداوية المرحلة بعد اغتيال الحريري وحرب تموز، استقبل بشيء من الحيرة، رغم أنه أنضح أعماله. «هنا يقولون لي أنت تصنع أفلاماً للأوروبيين، وهناك خاب ظن الذين ينتظرون كليشيات عن لبنان والمنطقة. لا يقبلون إلا بصعوبة مخرجاً من الجنوب يتعامل مع

عنوان «مقاطع من كتاب الغرق»، وأخذته الكتابة إلى السينما. في بيروت العصر الذهبي التي اكتشف روائع الفن السابع: في سينما كليمنصو والمراكز الثقافية، وفي الصالات التجارية: «أذكر يوم حضرت «صرخات وهمسات» لبرغمان في «الكومودور». كانت الصالة تغص بالمشاهدين».

في السابعة عشرة، بعد اندلاع الحرب الأهلية، حزم الشاب الراديكالي حقيبته ميّماً شطر باريس التي ستشهد ولادته الحقيقية. حصل على البكالوريا بفارق علامة واحدة، وتسجّل في «العلوم الاقتصادية» لأنه لم يجد مكاناً في قسم الفلسفة. اشتغل في الفنادق والمطاعم، وكان يلتهم كل ما يراه ويسمعه. صار مسكوناً بالسينما، إلى حدّ الانفصال عن صديقته لأنها لم تحب فيلم تاركوفسكي «المرأة»: «لم أدرس في الـ IDHEC معهد السينما الفرنسي آنذاك. لم يأخذني أحد بيدي. صرت سينمائياً وحدي كمتوحّش. وككل العاصميين تلازمني عقدة الدخلاء والمنطّلين. أخاف دائماً ألا أكون عند المستوى المطلوب».

كلما سئل «ما مهنتك»، خلال رحلاته المكوكية بين باريس وبيروت، كان يجيب «حلاق نسائي». صوّر أفلاماً قصيرة، في انتظار ولادة «أشباح بيروت». «كانت التجربة مدهشة بالنسبة إليّ، اكتشفت إمكاناتي الخفية، ونفسي الطويل في متابعة التفاصيل الصغيرة والمسائل الكبرى». نحن في أواخر التسعينيات، والسلم

وكنتم أسمع اسم فلسطين أكثر من لبنان». هنا وجد نفسه غريباً عن كل شيء، بدءاً من القسم الفرنسي في «الإنترناشونال كوليدج». في شارع حمد، حيث سكنت العائلة، على مقربة من صبرا وشاتيلا، جمعه حبّ «الفوتبول» برفاق جدد من اللاجئيين الفلسطينيين. لم يسخر هؤلاء من كلامه بالعربية، وكان يتقاسم معهم غربة خفية: «الفوتبول أخذني إلى المخيم... كنت أريد أن أصبح بطل فوتبول، وأن أحرق فلسطين».

كبر المراهق في تلك السنوات الخصبية والصاخبة. «ما زلت أذكر التظاهرات. نزلت إلى الشارع حين اغتالت إسرائيل كمال ناصر... وشاركت في تظاهرات عمّال غندور». نسمعه بدهشة، إنها المرة الأولى التي يتناول فيها غسان ماضيه السياسي. تتسع العينان أكثر حين يقول: «كنا نفكر في أنه لا بد من تثوير المنطقة. ما زلت أشعر أحياناً بالأسف لكوننا قد فشلنا. كانت الأمور ستكون أفضل اليوم ربّما». غسان سلهب إذاً رجل له ماض، مثل زميله محمد سويد. لكن الأخير يعود باستمرار إلى ذلك الماضي في أفلامه. أما غسان الذي جنح إلى تجريبية صعبة، لا تتسع إلا للحالات والمناخات والتأمّلات، فلم يأت ساعته بعد.

السينما؟ لم يكن يفكر فيها حين أعطاه أبوه ذلك الشيء في أفريقيا. حمل الكاميرا «سوبر 8» إلى لبنان، وتعلم من خلالها كيف ينظر إلى الواقع. أنتج صوراً كثيرة، لم يفكر في تحويلها إلى أفلام. كان ولا يزال يكتب كثيراً (قريباً ينشر كتاباً تحت

بيار أبي صعب

الشباب المرهف يتحدث بعربية مكسرة. يقف في باريس الثمانينيات، بمعطف طويل يتلاعب به الهواء، مثل مشلح

دراكولا الذي سيلبسه لاحقاً كارلوس شاهين في «أطلال». قال إنه يعدّ لفيلم عن لبنان، وأعارنا السيناريو كي نطلع عليه. لم نتصوّر أن تلك الأوراق المطبوعة بالفرنسية على الدكتيلو، بين دفعتي الكرتون الأحمر، شهادة على بدايات مبدع أصبح اليوم أحد أبرز «مؤلفي» السينما اللبنانية. كانت صبيغة أولية لما سيصبح بعد اثني عشر عاماً «أشباح بيروت» باكورته الروائية. شخصية خليل العائد إلى وطنه بعد اختفاء عشر سنوات، بقيت في الفيلم، لكن السيناريو تغير كثيراً. بقيت أيضاً تلك الإشكالية الأساسية في حياة غسان سلهب: حكاية العودة الدائمة، رحلة التيه بين مدن وحيوات كثيرة، بحثاً عن موطن في «أرض مجهولة» تسكنها الثورات والحروب.

غسان المولود في السنغال مع اندلاع ثورة 1958، كان في الثانية عشرة حين وطئت قدماه أرض لبنان، منسلخاً عن شوارع دكار. «كنت ابن شارع، وقد بقيت كذلك بعد الانتقال إلى لبنان». في الشارع سيتعلم كل شيء تقريباً. منه سيبدأ حياته في بلد لا يعني له شيئاً. لم تكن لديه يوماً فكرة عن الوطن، أينما عاش كان ينتمي إلى «مكان آخر». «كانت أمي في السنغال تقول إننا عرب،